

فلسفة العقاد والدين والاجتماعية

لمؤستاذ: علال الفاسي

أستاذ في جامعة القرويين ودار الحديث الحسنية

الكاتب العربي الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد وقد آثرنا تقديمه على صفحات مجلتنا وقد استغرقت كلمة الادباء والمثقفين .

الموضوع او الشخص الذي يتحدث عنه وتجلية دخائله للناس ، انه ينزل الموضوع والشخص على المشرحة ثم يأخذ في التحليل والتجلية حتى يصبح القارىء على بينة من أمر ما يقرأه ، وحتى يحسب ان فى كل جزئية أو جانب موضوعا خاصا يطرقه العقاد وما يزال يقلبه على جوانبه ، ويصل الى نهايته دون أن يحس القارىء انه قارب الانتهاء .

ذلك أن وتيرة العقاد فى الترسل واحدة ، بداية انقول كنهائيه لا يعنى ببراعة الاستهلال ولا يؤذن بالقرب من الختام وهو ما يجعل القارىء مندھشا بعد اتمام القراءة لفصل من فصول كتبه أو كتاب منها ، متسائلا هل انتهى الموضوع وكيف انتهى ، ثم يعود بعد ذلك الى مراجعة الشريط الذى مر فى ذهنه ليندهش مرة أخرى مما احتوى عليه من فنون القول وضروب المعرفة ، وآيات الفكر .

بيئسة العقاد

ولقد تربى العقاد فى بيئة السلفية الاولى ، فى المدرسة التى اغترف منها جيل رشيد رضا وشكيب أرسلان وسعد زغلول والرافعى ولكن التحدى الذى أشرت له أخفى أول الامر فى نفس الفقيه أنس هذه المدرسة ولم يبرز منها الا جانب الوطنية كما علمها سعد زغلول وبنها القائد العملاق فى أثناء كفاحه من أجل استقلال مصر ووحدته وادى النيل .

ألغى الاستاذ الكبير هلال الفاسي كلمة فى تأبين طرق عدة جوانب من حياته منها هذا الجانب الذى الاستاذ علال ما يزيد على ساعتين فى جمع كبير من

ان أعظم مميزات هذا الرجل هى العصامية ، فمنذ نشأ العقاد وهو يعمل ليل نهار دارسا محصلا ، ثم باحثا محصلا ، ثم داعيا مجادلا .

لم يتخرج العقاد من مدرسة او جامعة ، ولا درس على مجموعة من الاساتذة ولكنه اعتمد على نفسه ، واهتم بما حو اليه ، وخالط الشخصيات النيرة واستفاد من أمثال جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومن تنافس أقرانه له ، ما جعله عالما علما ، وكاتبنا ممتازا ، وشاعرا فذا ، وهذه الطريقة التى انشأته ، هى التى وجهته نحو الدراسة الاجتماعية والتحليل النفسى وأخيرا الى علم الاديان .

ان للتحدى أثرا بينا فى تكوين العقاد وفسى عظمته ، فالرجل الذى لم يجد السبيل لاستكمال دروسه والحصول على الشهادات وألذى ظل يسمع من بعض الاوائل الذين يحملون الألقاب الجامعية تبجحا واستكبارا اتجه لان يثبت لهؤلاء وأولئك ، ان الرجل بنفسه لا بدراسته ، وان العقاد الذى لم يحمل شهادة تذكر ، سيصبح هو الشهادة بعينها ، يوخذ قوله فى اللغة واللهجة ، ورأيه فى الاجتماع دليلا ، وكلماته فى الحكمة مثلا .

وأعظم صفات العقاد فى أسلوبه فى الكتابة وحتى فى الشعر هى القدرة على التحليل النفسى والاجتماعى، فسواء فى مسار القصة ، او فى دواوين العقاد العشرة ، أو فى عبقرياته أو كتابه عن ابن الرومى ، فان المعين الذى يستنبط منه قصيدنا واحد ، انه النفاذ الى اعماق

الملك العائلي الذي لا يقبل التفويت خدمة للطبقة
الارستوقراطية .

ديمقراطية فريديس

وقد صاحبت هذه المسؤولية الثانية العقاد في
جميع كتاباته فكان يدافع عن الديمقراطية الفردية بكل
ما في الكلمة من معنى . وكان يحب أن يتحدث عن
الباشوات الذين يتنازلون من عليانهم فيحسنون
لنفس أو يقومون بمعروف . وذلك ما يجعله يرتئى بعض
الباشوات بشعر نقرأ فيه روح المجاملة أكثر من ألم
يفقد عزيز أو رثاء لضياح شخص ممتاز .

ولقد شاهدت العقاد في بيته بعد اسقاط
الاقاب في مصر وزواره من طلبة الجامعة يخاطبون
بالبيك فيجيب وهو مسرور لا ينكر عليهم من ذلك
شيئا .

نجد اثر هذا الجيل في أساليب العقاد في عهده
الاول ، فهو يقاوم الساسة الذين يناوشون سمدا
وصحبه ، وهو يعاكس الرافعي ولكنه ينافس كذلك
طه حسين وينقد شوقي ليبرز وجوده كباحث وكشاعر ،
ويموت سعد ويبقى في حمى النحاس ، ولكنه يفضى
مع حركة الباشوية الجديدة ، مع أحمد ماهر وصحبه ،
الحركة التي انشقت عن الوفد تنويع الملاكين الزراعيين
الذين رأت بريطانيا في وجودهم ضامانا لما غرسته
من نفوذ ومن آمال حسب تصريح اللورد كرومر بذلك ،
وحيثما يصب جام غضبه على النحاس (الرجل الذي
ليس في بيته كتاب) ويعلم انه سيحطم الوفد بقلمه .

ولكن العقاد مع ذلك يناوىء الاستعمار ويواكب
الذين يعملون للديمقراطية . ويدخل السجن من أجل
كلمة رأت الحكومة فيها مساسا بكرامة القصر .. فيكتب
عصامينا كتابه الخالد : الحكم المطلق في القسرن
العشرين ، وينتهز الفرصة في سجنه ليكتب مذكرته ،
والحق ان العقاد يظهر نفسية غير الديمقراطية حين
يشتم من الحارس الذي يأبى ان يطفى ضوء زنازته
في غير الوقت المحدد .

وليؤكد وفاءه للوفد كما تركه سعد ، يؤلف
كتابه العظيم عن سعد زغلول ، وهو من أحب الكتب
للعقاد . ولقد حلل فيه نفسية الزعيم المصرى الكبير
وأخلاقه ، والجو الذى عاشت فيه الثورة الوفديس
والشجرات التي حققتها ، وهو كتاب ممتاز بروحه
الوطنية ووفائه لرجلها .

ديمقراطية الاغلبية

وفي أثناء الحرب الاخيرة وقف العقاد بجانب

من العقاد ورجال جيله في هذه الحقبة ، عاش
مرحلة الاضطراب والتقليل بين الافكار والاساليب التي
ينشرها المتخرجون من معاهد الانكليز ومعاهد الفرنسيين ،
بين اثر الثورة الفرنسية التي عاش في جوها مصطفى
تامل ومحمد عبده والتي يرجع اليها قسط مهم من
أساليب القصة ومحاولات الكتابة الاجتماعية الاولى ،
لان من (صنع) هذا العهد الكتاب اللبنايين المتأثرين
بانفكر الفرنسي قبل غيره ، وبين المناهج والاخلاق
التي يبشر بها اندارسون بالانجليزية والمعجبون بالخلق
البريطاني في ميدان الديمقراطية ونزاهة القضاء ،
والندرس في مصر على تل حال ذات البرنامج الاستعماري
الذي خلقه دنلوب باشا ، وفصل به بين الدراسة
الاصلية والدراسة الحديثة ، الى جانب الجو السدى
خلقته الدعاية البريطانية لفصل مصر عن الخلافة
العثمانية وتكوين حركة وطنية أبعد عن فكرة الجامعة
الاسلامية وضدا على وطنية مصطفى كامل التي هى
الوطنية التلقائية الحق . وذلك عن طريق ثلة من
الاقباط الذين أناروا الطائفية وهددوا بفصل جانب
من القطر المصرى يكون وطنيا قوميا للمسيحيين فهدوا
السبيل لرد فعل متنازل من جانب الاغلبية ، ليقبل
العلاج الذي يرضى عنه الغرب وهو الدين لله والوطن
للجميع .

ومن هنا بدأت نقطة البداية السيئة فسى عمقها
الجبيلة في مظهرها ليس عند انصريين والذين تأثروا بهم
من الشعوب العربية في خلق الوطنية الضيقة التي
تفصل مصر عن العرب وعن العالم الاسلامى ، كما يفصل
بعد السودان عن مصر ولبنان وفلسطين والاردن عن
سوريا .

لقد كان سعد زغلول أول من حمل مشعل هذه
الدعوة ، ونادى بالوطنية المصرية ، وكان العقاد من
حوارين سعد ومن ابناءه الذين وفوا لعهد .

وإذا كانت لهذه الوطنية منقبة العمل على تحرير
مصر من الحماية البريطانية بعد كفاح مرير ، فانها
تتحمل مسؤوليتين خطيرتين ، الاولى انها شككت في
أوائل عهدها في القيم الروحية والادبية ، حتى أصبحنا
نجد العقاد في بداية أمره ، يكتب معللا عبقرية ابن
الرومى بأنها جاءت من (الرومية) التي يحملها . الفكر
الذى يرجع بعد عنه ، يوم تجلى له حقيقة الفكر
الاسلامى وعبقرية الادب العربى أما الثانية فهي الاتجاه
نحو الرأسمالية واقتباس الديمقراطية من الطبقة العليا
في فرنسا وفى بريطانيا على الخصوص . الامر الذى
جعل سعدا مثلا يرفض في مجلس شورى القوانين

الحلفاء، وكتب وحاضر عن الديمقراطية وهمل الاضطهاد الذي أصاب احمد ماهر وتودة النحاس الى الحكم ودعايات الحلفاء فصلته عن جماعة السعديين ، فأصبح منفردا في عمله متجها نحو خدمة مثل أعلى اثره على غيره ، وكان يعلن انه سيخدمه حتى الوفاة الا وهو الديمقراطية .

ومهما يقل عن عوامل المحبة التي أظهرها العقاد لفائدة الديمقراطية وانصارها في وقت الحرب ، فالذي اعتقده انه كان مومنا بهذه العقيدة السياسية لان المدرسة التي استمد منها وهي مدرسة الوفد كانت ديمقراطية امتازت بجهادها من أجل الدستور وحمايته من عبث الحكم الفردي والحياة والنضال في الاقباس .

وما أظن العقاد تراجع عن فكرته في الديمقراطية وحبها ، وان عدل رأيه في بعض جزئياتها ، فقد كتب يؤيد الفكرة القائلة بان رأى الاغلبية لا يعتد به دائما ، لان الكثرة في جانب الشر في أغلب أوقاتها ، متأولا على ذلك آيات القرآن الماثلة لقوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) .

وقد كان في هذا الانفراد عن الاحزاب السياسية المتطاحنة ، اثر عظيم في اعطاء شخصية العقاد استقلالها ، وعزوفها عن تبعية الرؤساء وخدمتهم ، وقد استقل العقاد فعلا منذ الحرب الاخيرة بنفسه وبآرائه ، وأصبح يتجه نحو الشعب نفسه . يكتب له ويوضح له عقائده ، ويستشير بايمانه ، ومن هنا وجد عصامينا نفسه خالص اليها واستخرج من أعماقها ذلك الكنز الذي كانت السلفية قد أودعته فيه ، وغطت عليه السياسة ومواجهة التحدي من الاقران في الادب وفي الاسلوب .

طريق جديد

ومن هنا يبتدىء العقاد حياته الجديدة العامرة ، ومن هنا ينبثق النور الذي يضئ للمجتمع العربي سبيله في كتب العقاد .

لقد دخل فقيدينا ميدان الفلسفة ، بكل ما في الكلمة من معنى ، ولكنها فلسفة الروح ، وما تضيفه على المجتمع الذي يحياه ، من معنويات ومثل وآثار لها . بدأ العقاد الذي استحق في هذا العهد فقط لقب الكاتب الاجتماعي الذي كان يضيفه على نفسه منذ نشأته ، بكتابه عن : « الله » وهو كما نرى موضوع ثرى بكل ما في الالوهة من غنى ، كتبه

للشباب الذي يحسب ان في العزوف عن الايمان بالله تقنمية وأمنا ، أو ان في كتابات فلاسفة الغرب ما يحول دون الفكر ودون تعقل العقيدة التي هي في قرارة القلب .

وأهم ما في الكتاب توضيح اثر الايمان في حرية الفرد وفي دفعه للعمل والكفاح من أجل الحياة ، أي الجانب الاجتماعي من الدين . ثم يتدفق العناد في عبقرياته ، موضحا جوانب العظمة في سيرة النبي وجوانب العبقرية الحق في جانب الخلفاء وكبار الصحابة ، من أبي بكر الى بلال ، واستعمال اسم العبقرية في حق الرسول ، انما هو اثر من آثار الاسلوب العقادي الاول ، والا فالرسول أكبر من عبقرى لانه رسول يوحى اليه ، ومع ذلك فان هذه الكتب أثرت أثرا عظيما في نفوس الأمة المسلمة التي رأيت في صدورهما فتحا مبينا للناس . ونحن لا نأخذ على العناد في هذه السلسلة الا نقطتين :

أما الاولى وهن أقربهما ، فهن تملقه أحيانا لجمهور القراء في العراق وهم شيعة كما نعلم ، والعراقيون أكثر الناس قراءة واقتناء للكتب . وهكذا نجده يمس من قدر معاوية في كتابه عنه فينفى عنه كل حكمة وكل حلم يصفه بهما المؤرخون ، ولا نعلم ذلك الا بمسيرة الكاتب لجمهور قرائه العراقيين .

خرافة التلباتي

وأما الثانية ، فهي انه يسف أحيانا في اثباته للدين ، حتى يستعمل حججا تضر بالعقيدة من حيث يراد نفعها ، ومثال ذلك أنه حاول تفسير الكرامة المروية عن عمر يوم نادى وهو على كرسيه في مسجد المدينة : يا سارية الجبل الجبل ، على انها من قبيل ما يتحدث به الروحانيون اليوم من التلباتي وهو تفسير خير منه ابقاء القصة على حقيقتها فمن صدقها على أنها كرامة لاحد الصالحين من عباده فحبذا ومن لم يصدقها فلا يضر الواقع شيئا . أما ان نجعل المسلمين يومنون بخرافة التلباتي من أجل اثبات كرامة لا يستطيع العقل انكار امكانها ، ولا مبرر لوجودها لمن يؤمن بانفلاق البحر لموسى والقمر لمحمد ، فالمسألة أولا وأخيرا مسألة ايمان وتصديق .

مطلع النور

ولا تعفن ملاحظتنا هذه على الجهد العظيم الذي بذله العقاد لاستخلاص حياة الرسول وصحبه من ارتباط الاسباب بالمسيبات . ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط بل

لعلها تناقضها وتؤدي الى خلافها ، وانما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلّة بما يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات بل هي العلاج الذي يزيلها والآية الالهية التي تحول الاسباب الطبيعية الى طريق الحكمة الابدية التي تنكشف أوائلها من خواتمها خلافا للعرف الشائع من دلالة الاوائل على الخواتم .

وقد حلل المؤلف بشائر الرسل بالنبى ، وحلل المعجزات كما حلل النبوة من حيث هي ، نبوة الجنون، ونبوة الهداية كما سماها ، واستخلص من التاريخ كله دين الانسانية وقيامه على المسؤولية الفردية ، ووحدة الدين بوحدة الكعبة ، وختم بالوسط الذي نشأ فيه محمد خاتم النبيين .

ومع أن هذا الكتاب جاء محتوجا لما سبقه من كتابات عن الرسول فقد أصبح كالمقدمة لحياة النبى لانه يوضح الظروف الجغرافية والروحية التي بعث فيها محمد الامين .

ومع انه عرض اجتماعى وتاريخى ، فان طريقة كتابته تجعله من كتب الفلسفة التي تقرر الاحداث بأخلاق الناس وترتب هذه على تلك أو تلك على هذه .

دفاع عن الديمقراطية

وحرب ضد الشيوعية

ويصل بنا هذا الحديث المبرج الى مآثر العقاد في عهد الثورة الناصرية ، فالذى يمكن ان نسجله باعجاب هو محافظة العقاد على استقلاله فى هذه الحقبة ، وعلى حياده ازاء السياسة المصرية أيضا ، فلن نجد فيما كتبه العقاد عن مصر أثرا يقرظ الثورة أو ينقدها ، ولكن لا نعتقد أحدا اهتم بالعمل على توجيه الثورة أكثر مما فعله العقاد ولكن فى صمت وعدم اثاره للانتباه .

والحق ان العقاد لم يكن راضيا عن منع الاحزاب ولا عن اعتقال جمهور من المفكرين . وقد سمعت منه تشكيا مرا فى بعض احاديث الخاصة معه . ولكنه مع ذلك حظى برعاية جميلة من طرف الثورة لم يحظ بها أمثاله من ذوى الافكار العتيدين .

لقد سالم الثورة وسالته ، وخدمته بنشر كتبه فى حظيرة المؤتمر الاسلامى ، وخدمها بتوجيهها نحو المعرفة الحق بالاسلام . وهنا نجد مركز كتبه (لشيوعية ولا استعمار) والديمقراطية فى الاسلام ، وحقائق الاسلام وأباطيل خصومه وانقسامه القرائية وأخيرا ما يقال عن الاسلام .

وإذا كان هذا الخطاب الذى نكتبه من وحى

البدية لا يسع لتحليل كتب العقاد العظيمة فلا بد من القول من أن العقاد منذ حصل على استقلاله وهو يسير نحو الالتزام حتى نفسه فى هذه المرحلة ، فقد أصبح الرجل الذى يعمل على ان يبعد الناس عن كل قدرة غير اسلامية ، فاذا كانوا يريدون الديمقراطية فهى فى الاسلام ، واذا كانوا يريدون العدالة الاجتماعية فهى فى الاسلام ، واذا رغبوا فى حلول مشاكل الحضارة او الاجتماع فهى فى الاسلام ، (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) .

والمهم أن يتحرر المسلمون من شيئين هما : الشيوعية والاستعمار ، ثم يبنون انفسهم على انفس وضعها القرآن لأول مرة لهم وللانسانية كلها .

لا شيوعية ولا استعمار

كتابه (لا شيوعية ولا استعمار) اعلان لموقف صريح يجب أن يسير فيه الشريكون قاطبة ، فهو يقول فى مقدمته (فموقف الشريكين بين الشيوعية وبين الاستعمار انه لا شيوعية ولا استعمار) .

والعقاد لا يريد ان يوازن بين الشيوعية وبين الاستعمار ولكنه يرى كليهما «خطرا وكليهما جديرا بالحدر والانتباه» ويقول : «الشيوعية والاستعمار - من ثم - لا يتناقضان ولا موازنة بينهما على هذا الاعتبار ، واذا جاز ان تنعقد الموازنة فانما تكون بين جهد الكفاح للشيوعية وجهد الكفاح للاستعمار او بين الخطر المقبل والخطر المتدبر» .

ثم يمضى يحل هذه الكلمات ، فيتحدث عن الشيوعية من الوجهة العلمية عن انقيصرية والاستبداد والنعصرية ، والعالمية ويختم بفصل أكثر من دعوة وأكثر من دونه ، وهو فى هذا الفصل يبين الفرق القائم بين الصين وبين روسيا ، ويتنبأ بتطاحن القوميتين . وآخر كلمة للعقاد فى هذا الفصل قوله : (ولا يعتقد المؤلف ان المذهب الماركسى يصح لعمل نافع فى علاج مشكلات العصر الا أن يكون هذا العمل تعجيلا منظما لحركة التصنيع فى البلاد التى تخلفت فيها الصناعة وغلبت عليها عيوب البداوة فى أساليب الزراعة ونظم الاقطاع)

فالشيوعية لا تصح ان تكون علاجاً للشرق فى نظر الكاتب ، لانها وان أدت الى التصنيع الذى تحتاج اليه مصر فهى خطر

ثم يعود العقاد لتحليل الاستعمار وعيوبه فيتكلم عن مبدئه وأسبابه وسباق الاستعمار وأنواع المستعمرات وادابه ونهايته ونموذجه الجديد ويستنتج

مشكلته في الحكم على الاستعمار وعلى الشيوعية فيقول :

« فالاستعمار حركة من حركات التاريخ الدولي بلغت نهايتها وفقدت حجة وجودها ، ومن فقدان حجة وجودها انها لا تستند الى مبدأ ولا تدعيه ، فلا يوجد اليوم من أساطين الاستعمار من يقول انه مستعمر او يقال عنه انه مستعمر فيقبل هذه التسمية .

ثم يقول : واذا كان الاستعمار قد فقد مبداه عند أصحابه فهو من قبل ذلك لم يكن له مبدأ يستند اليه عند ضحاياه ، فلم يوجد من قبل ، ولن يوجد اليوم انسان ينتمى الى بلد مغلوب ينادى بمبدأ الاستعمار ويتردد في وصف العاملين على خدمته في بلادهم بصفة الخيانة والأجرام .

حركة من حركات التاريخ قد صارت الى نهايتها وأصبحت اليوم بغير قوام تستند اليه غير الواقع الذي يتراجع أمام واقع أعظم منه ، وأجدر بالشباب فسي مجرى الحوادث ، فليس للمستعمر اليوم مبدأ يسوغ به مظامه ، وليس لهذا المبدأ قيمة السند المرعى عند من ينتفع به فضلا عن المنكوبين بدعواه .

واذن فوضع الاستعمار في التاريخ الحديث هو وضع لا يحسد عليه ، لانه لا ايمان لأصحابه به ، ولا امكان لمساندته من أحد ، فما هو وضع الشيوعية ؟ يجيب العقاد بأنها استعمار وشئ آخر غير الاستعمار .

ومصير الشيوعية المستعمرة كصير الحركة كلها في مراحلها التاريخية ، ولكنها تختلف كثيرا فسي أخطارها لانها لا تأتي بأخطار الاستعمار خالصة الدعوة التي تعم المستعمرين الشيوعيين وضحاياهم على السواء .

ولكن الشيوعية ذات مبدأ ، وللمبدأ مومنون به وسند يعتمد عليه فما هي أضرارها اذن ؟ يقول العقاد في البواب ، والخطر في الشيوعية أنها تفقد ضحاياها القدرة على المقاومة ، لانها لا تبقى لهم الكرامة القومية . ثم يختم الكتاب كله بهذه الجملة : والكلمة الاخيرة في هذه العجالة اننا اذا عرفنا مساوي الشيوعية والاستعمار فلا محل عندنا للشيوعية والاستعمار فانهما شران لا تبقى منيما بقية ، ويبقى معها خير لامة شرقية ، وكل ما بين الشر والشر من فارق ، فهو في حكومة الشورى والمساواة الفارق في الجهود التي تلزمنا للتليقظ والخيطة منه ، والسعى الناجح للخلاص من فعله ومن دعواه .

وهذا هو الجانب السلبي في فلسفة العقاد

الاخيرة ، مقاومته كل ما يخرج على النظام الذي يرضاه ، وطن حر ، وديمقراطية في الحكم ، ولا عليه بعد ذلك في وجود الطبقات والابقاء عليها لانها من ضرورات الحياة في رأيه .

وليس غريبا ان نرى الخوف من الشيوعية يصل بالعقاد لتلك الدرجة ما دام قد نشأ في وسط الوفد ، وفي بلد كان الزائر فيه لموسكو يمنع من العودة لوطنه ، وفي جو حملت فيه الثورة نفسها على الشيوعيين ، ولكن العقاد مخلص في انتقاده للشيوعية باعتبار الزاوية التي يراها منه ، زاوية المركزية التي يفرضها الحزب الشيوعي على اتباعه فيفقددهم في نظره كل استقلال وطني ، وكل استقلال فردي .

أما الجانب الايجابي فهو في شعور العقاد بضرورة اعطاء الشرقين فلسفة ونظاما ، ولكنه يجد ذلك في متناولهم ، لان عندهم القرآن فيه كل ما يحتاجون من فلسفة ومن أساليب في الحياة وفي الحكم ، وهنا نجد مركز كتابه المهتم بالفلسفة القرآنية ، والاسلام وأباطيل خصومه .

ولقد قال في مقدمة الفلسفة القرآنية : « وفي هذا العصر الذي تتصارع فيه معاني الحياة بين الايمان والتعطيل ، وبين الروح والمادة ، وبين الامل والقنوط تلوذ الجماعة الاسلامية بعقيدتها المثلى ولا تخطئ الملائد ، لانها عقيدة تعطيهما كل ما يعطيه الدين من خير ، ولا تحرمها شيئا من خيرات العلم والحضارة ، وهذا الذي نرجو ان نبينه في هذا الكتاب .»

ثم يمضي موضعا قيمة العلم في القرآن ، مدليا بآيات بينات ، تدعو الى الفكر والى النظر ثم الى استنتاج العلم من دراسة الكون ، ويقول ان فضيلة الاسلام في انه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها .

فانقرآن سبب للعلم ودافع اليه والى الفكر الموصل له .

ثم يعود لبيان المعجزة وامكانها عن طريق توضيح الخلق وأسبابه ، اذ كل ما يقرره العقل وهو واثق منه ان سبب الشئ يسبقه أو يقترب به كلما حدث على نسق

ويخلص من هذا الى دراسة الاخلاق ، ويستعرض نظريات الفلاسفة فيها فمن التعليل بتفعية الخلق ، الى مصلحة السادة ومصلحة العبيد ، ولكنه يوتر تفسيراً آخر للاخلاق ، هو الجمال ، ومصدر الجمال في الاخلاق هو أن يشعر بالتبعية ، ونبع الاخلاق الجميلة من «عزم» الامور

ودليل ذلك القرآن : وكل نفس بما كسبت رهينة، ولها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

فالأخلاق انما تستمد جمالها من صفات الخالق فى أسمائه الحسنى ، ولذلك فان المسلم يؤمن بمصدر الاخلاق الجميلة ، ويؤمن بأنها مفروضة عليه جميعا بأمر من الله .

ويصل الى الحكم فيؤكد انه فى حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية، وجماعه أن يكون لصالح المحكومين لا لصالح الحاكمين ، ولكن الحكم له دعامتان غير الشورى هما امانة الاصلاح وأمانة التعاون ، وكل ذلك من القرآن .

وإذا كنا نوافق العقاد على ما يدل به لحد الآن، فاننا نختلف معه حينما يريد ان يتناول الدرجات الموجودة فى القرآن على كون الطبقات شيئا طبيعيا فى المجتمع ، فما أراد القرآن بتفضيل البعض درجات على بعض أكثر من اقرار مبدأ الكرامة بالتقوى الذى قال فيه : «ان أكرمكم عند الله أتقاكم» أما التفاوت الاجتماعى بسبب المال او الجاه او الحكم فهو ما لا يمكن للاسلام ان يقره لانه أنكره بمجرد ما أعلن ان الناس سواسية ولا فضل لعربى على عجمى ولا لغنى على فقير .

ويمضى العقاد فى تجلية الفلسفة القرآنية فى المرأة والزواج وفى التحرير من الرق، والعقوبات ، ثم يعود الى العقيدة فيتحدث عن الآلاء ، وعن مسألة الروح ، والقدر ، والفرائض والعبادات ، ويتكلم على التصوف ، فنجد أيضا اثر السلفية بارزا فى حكمه على الذين يتصوفون أكثر من اللازم ويختم بالحياة الاخرى ، ويعود ليختم بالتذكير بالابحاث الكثيرة التى ظهرت فى الغرب محللة العقائد والنظريات ويقول : ومتى استوفى العقل والضمير حظهما من سعة القرآن على هذا النهج القويم فلا حاجة به الى موافقة النظريات المستحدثة كلما ظهر منها فرض جديد .

ويقول : ان جماعة المسلمين لا يستغنون عن عقيدة ، وانهم لا يصطفون لانفسهم عقيدة ميسرة سمحة خيرا لهم مما اعتقدوه .

هذا حظ النظرية .

اما النظام فالديمقراطية الاسلامية اولى ما يختار للحكم وأفضله ، وهنا يخلق العقاد فيكتب رسالته الصغيرة فى الحكم والمظنة فى العلم وفى الفكر «الديمقراطية فى الاسلام» ولما اعتقد ان هذا الكتيب مجموع الروايات وكتب السنين واعادة الحياة اليها فى

شكل عصري رائع وبلخ . نستبقى الامة الاسلامية مدينة له بهذا الادب الاسلامى الذى كان الرائد له ، ومن أحسن كتبه فى هذه السلسلة رسالة : مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية ، وهو كما قال فى فاتحته : «مقدمات ترتبط بما تلاها من الحوادث خير ما أخرجه العقاد للناس ، بل انه كتاب حياته .

فقد عرف الديمقراطية ما هى ؟ واستعرضها فى الحضارات المختلفة وفى الديانات الكتابية ، وخلص انى أن أولها هى ما سماه بديمقراطية الاسلام او الديمقراطية الانسانية ، وهى تقوم على أربعة أسس :

I - المسؤولية الفردية . 2 - عموم الحقوق وتساويها بين الناس . 3 - وجوب الشورى على ولاة الامور . 4 - التضامن بين الرعية على اختلاف الطوائف والطبقات .

وقد ذهب يحلل هذه الفصول بدقة ، ويبين المناسخ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من ديموقراطية الانسان محمد .

وانا لو ذهبت افصل ما كتب ، وما يوحى به فى كتبه كلها من الهام قرآنى عن الحكم الانسانى والحضارة الحق التى يجب أن يحافظ عليها المسلمون ويبعثوها ، لما كفاني وقت القارئ لهذه الكلمة ، لاستوفى ما يجب من ذلك .

أما بقية كتب العقاد ، ومنها ما نشر اخيرا ككتاب «ما يقال عن الاسلام» فيدخل فى باب ما يمكن أن نسميه «بالجدلية المعقائدية» للدفاع عن فهمه للقرآن وفلسفته .

اخوانى :

ان للعقاد جوانب كثيرة تحتاج الى فصول ممتعة يضطلع بها متفرغون لدراستها وتوضيحها ، ولكن أبرز شخصياته كفاحه من اجل الوجود العربى الاسلامى ، فهو امام فى اللغة وبان من بناء مجامعها ، ورائد فى النثر والشعر الحديثين ، ثم هو باحث ممتاز فى جميع الميادين ولاسيما فى تحليل الشخصيات ، وفوق ذلك فهو الكاتب الاسلامى المومن بمبادئ الاسلام وبأنه الحق الذى يجب أن ينتصر .

ولقد كافح العقاد من أجل وطنه ومن اجل اللغة العربية ، وكافح فى الختام من اجل الاسلام ومناهجه ، وأما ما عدا ذلك فهى نواح كان لا يهتم بها ، فهو راض بالنظام ، راغب فى الطمانينة ، واثق من الشعب

ولكنه يخشى عليه أن يقع في أحابيل الدعاة الهدامين
باسم المفاهيم المتدفقة في العالم .

ولقد أسعفتني الحظ بالاجتماع معه مرارا في منزله
وفي بعض المكتبات التي كنا نلتقي فيها عفوا لشراء
الكتب والاطلاع على ما جد منها ، فكان يتحدث الى
حديث اليأس من الحال ، المشتكى لما آل اليه الامر
في البلاد العربية وبيتعد عن السياسة ليتحدث في
موضوعات أسمى واكمل ، وما أزال اذكر مناقشة
طويلة بيننا حول كتاب زينان ضد المسيحية وقد أخذ
منى كتاب الاستاذ دولا سير في الرد عليه ، وكنا
متفقين في موضوع المناقشة وانما كنت أعجب بتدفق
العقاد وجهه للمزيد من المعرفة ومن الاطلاع . وزرته
مرات في بيته وهو مع مجموعة من طلبة كلية الآداب
ولاسيما قسم الفلسفة الذين كانوا يردون اليه كل
أسبوع يرتوون من معينه ، وسمعت يتحدث في

استهزاء عن اولئك الادباء الذين يتعلمون في مدرسة
غربية ما ثم يخوضون دائما في تمجيدها أكثر من
غيرها .

كان العقاد عملاقا في جسمه ، وكان عزبا لم
يتزوج قط ، ولكنه الرجل الذي يعمل في كل وقت ،
يلتهم الكتب قراءة وتأملا ، ثم يكتب للناس هذه
الذخائر التي ستظل ثروة للعربية وآدابها ، ومع
ذلك كان العقاد يقول : كلما ازدادت معرفة ازدادت
شعورا بما أجهل ، ان عالم المجهول كما أراه اوسع
مائة مرة مما كنت أعتقد عندما بدأت حياتي ، انسى
أقرأ لانى لا بد ان أستوضح شيئا جديدا .

ان حياة العقاد مليئة بالنور ، وما أجدر الشباب
أن يدرس حياته وكتبه ، وما أجدرنا جميعا أن نفتق
أثره ، رحمه الله ولقاه نضرة وسرورا والسلام عليكم .
غلال الفاسي

